المصـــــدر : الجزيرة
التـــاريخ : 23-09-2005
الصفحـات : 92
العـــدد : 12048
المسلسل : 295

استعادة لذكريات ١٨ رمضان ١٣٤٤هـ

القريات بعد تبدل الحال تستذكر ماضيها المكسو بالخوف والجوع

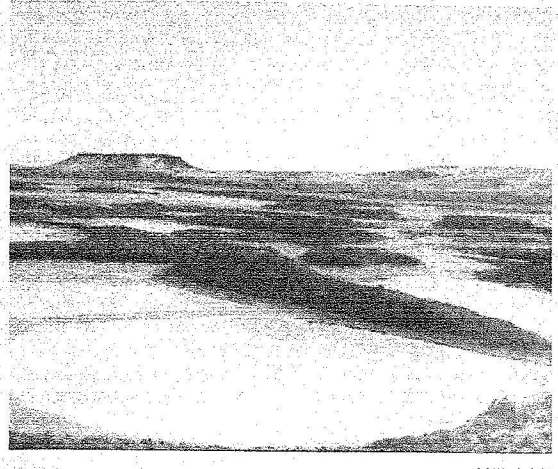

قرية كاف في أول صورة لها عام ١٩٢١م

المصـــدر : الجزيرة
التـــاريخ : 23-09-2005 العـــدد : 12048
الصفحـات : 92 المسلسل : 295

□ القريات - سليم صالح الحريص:

□□ قرى تحصنت بما حولها من تلال.. ومراقيب اعتلت هامات ما اعتلى من الأرض ونخيل تخضرت به القرى وتوارت البيوت عن الناظر وتخفت الوجوه عن العيون خلف جدران الطين. والليل والخوف والصمت رواد لأزقة القرى ومعابرها الضيقة.

توزع بين هذا وذاك وشد من هذا وارخاء من ذاك. لا طمأنينة تأتي ولا أمن يظلل هذه البيوت... هذه القرى.. الأرض لمن غلب.. والأمر بيد من يملك السطوة. والقوة مع من يجيد الكر والفر والغارة والنهب والسلب والقتل والترويع... صور.. مشاهد وقصص نحسبها من نسج الخيال والخرافة...

حين ينشدون:

يا مدرج الحيران لا لي ولا لك
هذي حلال القوم ما هي حلالك

نعم هم يعنون أن الإبل ليست لك. لأنها تمسي لك وتصبح في ملكية طرف آخر قد يكون غازيا أو مغيرا عليها... لا طمأنينة ولا أمان على ما تملك. ها هم يصورون حالتهم التي كانوا بها.

أيام قاسية:

في هذه الأماكن القصية من الوطن... حين تقتش السطور وتقرأ تفاصيل الحروف تتمكن من فك طلاسم ذلك الأمس.. تستحضره.. تدقق في تفاصيل حياتهم هنا من خلال استنتاج لصورة أمس عاشوه بخوفه.. بقلة الأمن فيه من شظف عيشه وسطوة العوز ونفوذ الحاجة.

في أقاصي الوطن... أطراف الأرض شمالا.. حيث القرى غاصة بالأحلام النافقة وانكسار على ابتسامة طفل روعه الغزاة والحنشل ومن في حكمهم... لا تفارقهم تلك الصيحات من أفواه من استبدلوا رحمة القلوب بالحجر الأصم. بالسلب والنهب. وهم يقتفون حلالهم دون وجه حق إلا بالطغيان والظلم والاستبداد.

تغيب سحابات الأمل كلما ترجلت الشمس وانطفأت ضفائرها خلف أفق بعيد وجاءهم من يغرس فيهم كل خوف ووحشة. الليل وظلمته والمتربصون بحلالهم مع تباشير الفجر في مفاصل أرضهم يكثر الطامعون.. الناهبون.. وتحت أسقف المنازل عشرات الأفواه الجائعة والأجساد العارية والبطون الخاوية والوجوه الشاحبة.

تغيب عن وجوههم الإشراقة وترتحل آمالهم صوب الشرق حينا وإلى الغرب أحيانا كثيرة. تغيب عنهم الشمس.. توصد الأبواب... لا حركة بين البيوت وسط الأزقة الضيقة وانحناء اتها وانكسار زواياها... سكون وليل وترقب لمفاجآت الغد. غد كاليوم... مثل الأمس مثل ما سبقه. قد تختلف الصورة.. قد يختلف الحدث ولكن.. الهم.. هو الهم.. لا شيء يترقبون مقدمه إلا الفواجع وما يوقظ المواجع.. لا اخضرار في المهج.. لا فرح يسكن البيوت.. لا أهازيج تقطع صمت الليل ووحشته.

يتناقل الركبان الأخبار... النار.. يقاطع الهمس تدفق المطر ودوي رعد ولاعج برق يلوح في كبد السماء كما هو لاعج الأمل وبصيص الضوء في قادم يزيل عنهم كوابيس أثقلت الأجساد وأبلت الشباب. وحسرت الأطفال على حلم لم يعرفوه... لم يتذوقوا طعمه.. طفولة تتوكأ الخوف وتقتات الألم وتلهو بالعبث. نسوة يستعذبن أوجاعهن.. يقتتن العجز ويستطعمن القهر... يتلهين بحكايات (مقطعة أيديها) وحزيرات (وش تحت الدرج)... شيوخ أوهنهم المرض والعوز والخوف.... والجبران تشاطرهم كل أوجاعهم... وأدخنة الغضا تغسل الأعين كي لا تستغرب الدموع.

هنا حيث لا دولة... لا حدود..... تبقى الأمور متروكة للأقوى. لذوي النفوذ والغلبة مع من يملك السلاح والسطوة.

رحلة إلى كاف:

الزمان ١٩٠٠ ميلادية (أي قبل ١٠٦ سنوات) تحديدا. المكان الطريق ما بين حوران والقريات. والمحدث الرحالة الانجليزي (ارتشيبولد فوردر) حين يصف الرحلة التي قام بها إلى قرية (كاف). يقول فوردر:

(قدمت مع قافلة تناهز الثمانمائة جمل محملة بالقمح والعدس والشعير والذي يستبدلونه بالملح والتمر من ممالح قرى القريات..

هذه القافلة حسب وصفه يتولى حراستها عدد غير قليل من الرجال يتمطون صهوات خيولهم مسلحين بالحراب والبنادق والسيوف والمسدسات.. حين انتصف النهار والقافلة في استراحة صاح عدد من الرجال قائلين إن العرب يقتربون وإذا بعشرة رجال راكبين فانطلق صوبهم بعض الخيالة وأطلقوا أعيرتهم النارية صوبهم فأسروهم.. (مختصر سقته معا كتبه ذلك الرحالة)....

هذه الرحلة كما يقول ذلك الرحالة هي من حوران في سوريا الشقيقة إلى قرية كاف قاعدة القريات في ذلك الوقت والمسافة لا تتجاوز (٢٠٠كم).

هذا الإيراد الهدف منه التدليل فقط على صورة الأمن المفقود آنذاك في واحدة من المناطق في بلادنا المترامية الأطراف.. (الحمد لله الذي بدّل خوفنا أمنا وطمأنينة).

حين يبادرك أحد كبار السن قائلا (احمدوا الله.. تتركون الأبواب مفتوحة دون خوف حتى الصباح) فإنه يعني ما يقوله ويدرك الدلالة. لأنه عاش واقعا آخر.. صورة أخرى من الأمن المفقود والخوف الذي يصحبهم أينما ارتحلوا. يمسي متنقلا على راحلة ويصبح منتعلا قدميه يهيم على وجهه في البيداء وقد يقضي قتلا أو عطشا أو جوعا.

في هذا الجزء من الوطن واعتي القريات كما غيرها من بقاع هذه الأرض الطيبة كان لها موعد مع فجر جديد... تاريخ جديد.. حمل لواءه جلالة الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه... قد صنع للأرض وإنسانها تاريخا وآرسى دعائم أمن واستقرار واجتث كل جذور الشجيرات البغيضة وقضى على هاجس الخوف ومزّق كل خيام ظلت تحمي المارق والسارق وقاطع الطريق وظلل الوطن بخيمة تنفيأ ظلها اليوم والأمن يتوج فضاء هذا الكيان...

القريات كان لها موعد مع تاريخ يمنح أهلها الأمان والطمأنينة إنه يوم (١٨-٩-١٣٤٤هـ) قد كان يوما مفصليا.

نسخ ما قبله من أيام كانت أقرب الى الضياع من غيره. إنه يوم يستذكره أبناؤها بكل فخار واعتزاز. رغم المحاولات المستميتة من البعض في أن يجعلوا منها محل مساومة ومتاجرة لكن القائد الفذ وبثاقب البصيرة وبدبلوماسية المحنك وحكمته جير كل جولات التفاوض التي امتدت لسنوات، والمباحثات التي ما أسفرت إلا عن تشبث الآخر فكان القرار الصائب ودخلت القريات في عهد جديد من الرخاء وارتفع العلم الأخضر خفاقا على قصر كاف بلا طلقة واحدة ولا قطرة دم سالت...

يوم جديد وعيد جديد أشرق على شفاه أبنائها. كان الحلم.. يتحقق في وطن واحد من أقصى الوطن في جنوبه إلى أقصاه في شماله. أنت تسير اليوم في مناطق كنت تهابها... لا تأمن على نفسك إلا أن كنت قويا مدججا بالسلاح.. ها أنت تعبرها ولا تشعر في لحظة من اللحظات بأنك مستهدف أو أن أبلك أو ماشيتك أو روحك وهي الأغلى في خطر....

رحم الله المؤسس فقد صنع لهذا الوطن تاريخا ومجدا قل أن يصنع مثله في هذا العصر.. وجزاه عن كل مواطن ومن كل ذرة رمل من تراب الوطن خير الجزاء.